كيف صرف الله

عنى السوء ؟

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

اشتهيتُ أن أقول الشعرَ فى الأسبوع الماضى ، بعد أن فطمتُ قلبى عنه سنوات وسنوات ، فدخلت مكتبتى ـ أعنى غرفتها لا رفوف الكتب فيها ـ وأغلقت الباب ، وقلت لنفسى « الآن ، أمنت أن يزعجنى هؤلاء الأطفال الملاعين ويُطيروا عقلى ـ أو ما بقى لى منه ، وهو قليل ـ بضجاتهم وكراتهم وزماراتهم وأسئلتهم التى لا تنتهى ، ومشاكلهم العويصة التى لا تحل ، واستبدادهم الذى لا يطاق . إنهم أطفال جديدون وأنا رجل قد شيّخت ، وهم حركة دائمة ، وأنا فتور يزداد على الأيام ، وسينتهى ـ عاجلاً أو آجلاً ، بل آجلاً إن شاء الله ـ إلى الركود . وهم استعداد مطلق ، وأنا نطاق محدود . وكيف بالله أطيق ان أظل ألاعبهم الكرة ، أو أجاريهم فى الزمر والوثب والصياح ؟ ؟ وما صبرى على هذه الأسئلة التى ليس لها عندى جواب ؟ ؟ سألنى أحدهم ـ أصغرهم ـ

« بابا . . . »

قلت : « نعم »

قال : « هل أنت بابا ؟ »

قلت : « نعم ، وأمرى إلى الله يابنى »

قال : « صحيح ؟ »

قلت : « أو يخامرك شك ياملعون ؟؟ أم لا يعجبك أبوك ؟؟ »

فجعل يردد كلمة « بابا » مستغرباً ثم سأل « يعنى ايه ؟ »

فلم أجد عندى جواباً حاضراً لسؤاله ، وعالجته ، وحاورته وداورته حتى انصرف عن هذا الموضوع ، ولكنه لم ينسه ، فهو يكر علىّ به كل بضعة أيام . فمن كان يعرف لسؤاله هذا جواباً مقبولاً فليسعفنى به ، وله الثواب من الله

وسألنى مرة ، ونحن على السفينة الذاهبة بنا إلى بيروت :

« هذا هو البحر ؟ »

قلت : هو بعينه ـ أعنى بموجه »

قال : « هل للبحر حنفية ؟ »

قلت : « لا »

قال : « لماذا ؟ »

فهربت من الجواب لأنه طويل ، وكان بى كسل فى تلك الساعة ، فعاد يسأل :

« ماذا يحدث إذا وقعتُ فيه ؟ »

قلت : « تغرق فتموت »

قال : « يعنى أكون كالسمك الذى فيه ؟ »

قلت : « كلا . إن السمك الذى فيه حى ، أما أنت وأنا فانا نموت إذا وقعنا فيه ، لأنا لا نعرف السباحة ، ولم نخلق لنعيش فى الماء كالسمك »

قال : « نموت كيف ؟ »

قلت : « نموت يا أخى ! سبحان الله العظيم ! »

قال : « ولكنى أريد أن أعرف »

قلت : « أنا لم أمت ، فكيف أعرف ؟ »

قال : « بابا »

قلت : « ياساتر استر . نعم ياسيدى ! »

قال : « أريد منك شيئاً »

قلت : « على العين والرأس ياحبيبى ، قل ياسيدى . تفضل ياروحى ! »

فيقول الخازن لأمير المؤمنين : « ما أنا لك بخازن ، ولا لأهل بيتك ، إنما أنا خازن المسلمين : ثم يجىء يوم الجمعة وأمير المؤمنين يخطب فيقول « أيها الناس : زعم عثمان أنى خازن له ولأهل بيته ، وإنما كنت خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيح بيت مالكم » ويرمى بها ...

* * *

هذا هو تاريخ المعجزة التى جاء بها سيد العالمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو تاريخ الأنسانية الكاملة ، تاريخ المسلمين الأولين ، خلاصة البشرية . فطالعوه يا شبان المسلمين ، وتدارسوه ، واسعوا لتكتبوا هذا التاريخ مرة ثانية على صفحة الحياة .. وتقولوا للعالم بأفعالكم لا بأقوالكم : نحن أبناء أولئك الآباء ..

على الطنطاوى

قال : « لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « لأنى أعرف أنك ملعون خبيث »

قال : « لا . . . » وضحك « إنما أريد أن أراك »

قلت : « وهل عميتَ ؟ ألستَ ترانى أمامك ؟ »

قال بسرعة : « لا لا لا . . . إنما أريد أن أراك ، فى . . . فى الماء ! »

قلت : « تعال إلى الحمام ، فان فيه حوضاً عظيماً »

قال : « لا » ممطوطة ، بازدراء ، « فى البحر . . . »

قلت : « يعنى تريد أن أغرق ، وأموت ؟ »

قال : « آه ! لأجل خاطرى . ألست تحبنى ؟ »

فلولا أن أدركتنى أمه ، لوجب علىّ أن أغرق تحت عينه . وهكذا إلى آخر ذلك إن كان لما يتقاضانى آخر يعرف

فقالت لى نفسى : « اسمع يامازنى . انك قليل العقل ، مافى هذا شك »

قلت : « أشكرك . فهل تسمحين أن تبيني السبب ؟ »

قالت : « نعم . هذا أنت تخلو بى ، لتنظم شعراً ، فبدلاً من أن تتناول القلم وتكتب ، تذهب تتمثل مايدور بينك وبين أولادك ، فتضيع الوقت فى غير طائل ولا تصنع شيئاً . فاذا لم تكن هذه قلة عقل فانه يسرنى أن أعرف ماذا هى ؟ »

قلت وأنا مغيظ : « استدراك ! إنى لا أخلو بك لأقول الشعر ، أعنى أنك ـ ولا مؤاخـــذة ـ لست الباعث على قول الشعر »

قالت : « لا تكن قليل الذوق أيضاً ! »

قلت : « إنها الصراحة والحق ، لا قلة الذوق . ثم إنك مخطئة . فانى لم أدخل هذه الغرفة لأنظم شعراً ، بل إنى اشتهيت هذا ، فأنا أريد أن أهتدى إلى الوسيلة التى تعيننى عليه »

قالت : « الوسيلة ؟ أية وسيلة ؟ تناول القلم واكتب ! »

قلت : « ياسلام ؟ ما أذكاك ! لو كان هـذا كل ما يتطلبه قول الشعر لما عجز أحد عنه »

قالت : « إذن ماذا تبغى ؟ »

قلت : « اسمعى أقل لك . . . إنى أصفيتُ ، أو على الأصح انقطعتُ عن النظم لأنك خليـة ، فأنا أريد الآن أن أشجوك ، أعنى أن أملأك »

قالت : « كيف ؟ فانى غير فاهمة ؟ »

قلت : « لك العذر ، فقد صرت كالصحراء ، التى نسيت الماء من طول ما انحبس عنها »

قالت : « ألا تقول وتوجز ؟ »

قلت : « إذن أقول إنى أريد أن يعمر قلبى الخرب ، وبعبارة أخرى أقرب إلى فهمك الكليل ، أريد أن أحب »

قالت : « تريد ؟ هه ؟ »

قلت : « آه أريد ! وأى غرابة فى ذلك ؟ »

قالت : « لا فائدة من الخلاف فانك مكابر ، وماذا تنوى أن تصنع ؟ »

قلت : « أنوى ؟ ليس أسهل من ذلك ! أدور بعينى حتى تقع على واحدة تستحق أن أحبها ـ هذا ما أنوى أن أصنع »

فحطت شفتيها ـ مجازاً ـ وأشاحت عنى بوجهها ، فقلت فى سرّى ، والله لأغيظنّها ! وخرجت ألتمس الحبّ ، وأدور بقلبى على النساء ، وأفتحه لمن شاءت أن تقع منهن فيه ، وكنتُ مستعداً ـ لأكيد لنفسى ـ أن أحب عشرين امرأة دفعة واحدة ، ولم لا ؟ إن كل ما يعنينى ، وما أبغيـه ، هو الحب ، لا المرأة ، وأثره لا وسيلته وأداته ، فكلما كانت النار أقوى ، واللهب أعلى كان ذلك خيراً لى ، ثم إنى أريد أن أجرب كل حب ، أعنى الحب من كل صنف ، ولون ، حتى الذى يعقب الخبل ويورث الجنون ، والذى يحرق الثياب ، ويترك القلب عارياً

وصرت كلما رأيت سرباً من الفتيات ، أقول لهن

« ادخلن يافتيات ! »

فيقلن : « أين ؟ »

فأقول : هنا فى قلبى . إنه عظيم ! شىء مهول جداً . يسعكن جميعاً ويسع مائة من أمثالكن . البدار البدار ، فانها فرصة لاتعوض

فيتضاحكن ويمضين عنى ـ لا أدرى لماذا ؟ كأنما لهن طلبة فى الحياة غير الحب ، أو سبيل إلى طلبتهن غيره ؟

وألاقى غيرهن . فأدق الناقوس ، وأستوقفهن وأسألهن :

« ما قولكن ؟ »

فيقلن : « فى أى شىء ؟ »

فأقول : « فى أن أحبكن جملة ؟ »

فيقلن : « مجنون ؟ »

فأقول : « أطعمنى . فانى أعرف ما لا تعرفن ! هذا قلبى قد فتحته لكن ، على آخره ، فادخلن فيه ، أنتن ومن تخترن غيركن من صواحباتكن ، فلن يضيق بكن ، فانه أعمق وأرحب من البحر الأعظم . . . أزخرنه لى ، وغصن فى أعماقه ، وامددن لى أيديكن بالدر المكنون الذى لا تبلغه يداى »

فيمضين عنى ولا يعبأن بى ، فيهبط قلبى ، وتفتر دقاته ، وتهى نبضاته ، وألمح النفس تبتسم ابتسامة الشماتة ، فيستفزنى ذلك ، فأكر إلى البحث

ولا أطيل ...لقيتُ آخر الأمر فتاة قالت لى :

« هل تريد أن أحبك ؟ »

قلت : « لا ... إنما أريد أن أحبك أنا »

قالت : « وماذا يمنعك ؟ »

قلت : « صحيح ! أما والله إنى لمغفل ! وماذا منعنى أن أحب نساء الدنيا كلهن ؟ ؟ أم ترانى كنت أحسب أن الأمر يحتاج إلى استئذانهن ؟ »

فقالت وهى تضحك : « أنت تحبنى ـ هذا حسن .. »

فقاطعتها قائلاً : « لا تغلطى يافتاتى ، إنى «أريد» أن أحبك »

قالت : « لا بأس . أنت تريد أن تحبنى ، هذا حسن ، وأنا ماذا أصنع بنفسى ؟ »

قلت : « لاشىء . أو إذا شئت ، فان فى وسعك أنت أيضاً أن تحبينى »

فضحكت وقالت : « أهو شىء بالأرادة ؟ »

قلت : « إنك سخيفة كنفسى ، ولا مؤاخذة ! »

فقالت : « ولماذا تريد أن تحب ؟ »

قلت : « لأنى أريد أن أقول شعراً ، وعلى أن هذا شىء لا يعنيك ، فدعينى وما أريد ، والباقى علىّ ، فلن يكلفك شيئاً »

* * *

فتركتنى لرأيى ، وجعلت وكدى بعد ذلك أن أحبها ، وذهبت أقنع قلبى بأنه قد أصبح عامراً ـ ولكن نفسى ـ قبحها الله ، أو زادها قبحاً ـ كانت تخرج لى لسانها هازئة ، فيهيجنى هذا منها ، ويسخطنى عليها ، فأغافلها أحياناً وأتحسس قلبى بيدى لأستوثق ، وأضع راحتى على بطنى لعلى أشعر بالنار التى يجب أن تكون مضطرمة فيها ، فلا أحس أن النبض أسرع أو أقوى ، ولا ترتد راحتى إلا باردة كما كانت . فأقول لفتاتى :

« إسمعى . هاتى أذنك ، فانى أخشى أن تسمعنى نفسى فتشمت بى »

وأسر إليها انى لا أحس شيئاً من مظاهر الحب ، وعلاماته ، فأنا آكل كالمهوم ، وأنام كأنى حقنت بالمورفين ، ولا أرانى أفكر فى شىء غير مايتفق أن أكون فيه ، . . . لاخفقان فى القلب ، ولا اضطراب فى الصدر ، ولا شوق ، ولا شىء مما يصفه المحبون غيرى ، بل أنا أنسى اسمك ، وأسميك كل يوم ، كما تعرفين ، اسماً جديداً ، فأى حب هذا ؟ خبرينى !

فقالت : « لا أدرى — هو حبك ، على طريقتك ، إذا كان صحيحاً أنك تحب »

فأسألها : « ولكن هل تظنين أنى أحب ؟ »

فتقول : « وكيف أعرف أنا ؟ »

فأسألها مستغرباً : « ألم يقولوا إن بين القلب والقلب رسولاً ؟ فكيف ضل الرسول يا ترى ؟ »

فتقول : « لم يأن أن تحب ياصاحبى . ولست بفتاتك على ما أرى ؟ »

فأقول : « ولكنك الفتاة الوحيدة التى وافقتنى على مااقترحت ؟ »

فقالت : ـ وأدهشتنى ـ « نعم . وافقت ورضيت ، بأن تحبنى إذا شئتَ ، فبقيت أنت لا تحب ، ووقتُ أنا »

فصحت بها : « ايه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت ـ بهدوء ـ : « لقد سمعت . . . . »

قلت : « أعيديه على مسمعى . . . »

قالت : « كلا . . . هكذا أحلى ! »

فكاد الفرح يذهب بلبى ، فما عرفت أن أحداً أحبنى فى هذه الدنيا مذ جئت إليها ، ولا ذقت فى حياتى هذه اللذة ، ولم يكن ذنبى أنى حرمتها ، ولا ذنب النساء أيضاً ، وأحسب أن عيونهن تتخطانى ـ لقصرى ـ فلا يرينى ، ولو رأينى لأحببننى بلا شك ـ كما فعلت هذه الفتاة الكريمة ، بعد أن جلست !

وعدت إلى بيتى ، وخلوت بنفسى فى المكتبة ، وقلت لها وأنا أكاد أرقص « والآن يانفسى ، يمكنك أن تطلقى من الغيظ وتنفلقى من الكمد » وأحسست بالشعر يجيش فى صدرى ،

وشعرت كأنه ليس عليّ إلا أن أدهور لسانى فى شدق ، أو أن أرفع سن القـــلم على الورقة ، فاذا به يجرى وحده بالكلام المونق المعجب

وجئت بورقة ، وبريت القلم ، ووضعت تلك على رجلى ، وهذا بين أصابعى ، وتوكلت على الله ، وأقمت القلم على الورقة ، وإذا بنقر على الباب ، فكدت أجن ، ونهضت ففتحته بكرهى فدخل صاحب لى فلما رأى تجهم وجهى قال :

« هل أنت مشغول ؟ »

قلت : « تسأل البحر هل فيه ماء ؟ »

قال : « معذرة . على كل حال لن آخذ من وقتك إلا دقائق ، إنك تعرف . . . »

وذكر اسم الفتاة — فتاتى التى تحبنى بارك الله فيها — فصحت به « ايه ؟ »

فقال : « إنى أتكلم بلغة عربية فيما أظن ؟ »

قلت : « ألا توجز ؟ مالها ؟ »

قال : « حسن . سأوجز . إنى سعيد »

قلت : « وأنا مالى ! »

قال : « هنئنى ! »

قلت : « بماذا ؟ »

قال : « لقد قابلتها — للمرة الثالثة — ولم أخبرك لأنه لم يكن هناك مايستحق أن يقال . ولكنها اليوم قابلتنى — أعنى استقبلتنى بعد أن خرجت أنت من عندها ، فكان مما قالته لى « إنك شاب ، وأنا شابة ، وأنا أصبو اليك كما تصبو الىّ ، صحيح أنى أقول لبعض معارفى من الكهول إنى أحبهم ، ولكنى مضطرة الى هذا لأحتفظ بودهم ، أما أنت فشىء آخر — أنت شاب مثلى ! »

فما قولك فى هذا ؟ »

قلت : « قولى ؟ أنا ؟ »

قال : « نعم . ما رأيك ؟ »

قلت : « صدقها ! »

فسألنى : « هل كذبت عليك ياترى كما كذبت على غيرك ؟ »

قلت : « علىّ أنا ؟ لا ! وهل يستطيع أن يخدعنى أحد ؟ والآن اذهب . . . . »

قال : « بسرعة ؟ هكذا ! »

قلت : « نعم فانى أريد أن أمزق دواوين الشعراء التى عندى »

قال : ألا يكفيك أن تكف أنت عن الشعر ؟ »

قلت : « كلا . . . وسأحرقها أيضاً بعد تمزيقها ؟ الشعر ! يا للسخافة ! . . . »

قال : « أعطنيها ولاتمزقها »

قلت : « كلا ... إنك شاب . وحرام علىّ أن أسىء إليك وأن أضلك . . . اخرج . . . اخرج . . . مع السلامة . . . »

ابراهيم عبد القادر المازنى

هلموا لحج بيت الله الحرام

على الباخرتين

«زمزم» و «الكوثر»

تؤدوا فرضين

فرض الله ، وفرض الوطن

شركة مصر للملاحة البحرية

تسهر على راحة الحجاج وتحقيق رغباتهم

(اطلبوا البيانات الكافية من ادارة الشركة بعمارة بنك مصر القاهرة)